

الإسلامُ بين المَاضِي والحَاضِر

بقلم الكاتب الفلسطينيّ

حسين ديبان

(Arabic – Islam between the past and the present)

By Palestinian "Hussein Diban"

[خطاب ألقاه الأستاذ حسين ديبان في المؤتمر الخاص بأقباط مصر الذي انعقد بنيويورك بشهر يونيو ٢٠٠٦. وقد نشرته "جريدة الأقباط متحدون" تحت عنوان (كلمتي في مؤتمر الأقباط) بتاريخ ٢٢ يونيو ٢٠٠٦]

من دواعي فخري وشرفٍ لي أن أتواجدَ اليومَ في هذا المؤتمر بين إخوتي أبناء مصر، وأمام هذه الباقية الجميلة من الأساتذة والمفكرين والأكاديميين (سيدات وسادة) الذين قدموا الى هذا المؤتمر من ربوع شتّى، وهو ما يبعث على الأمل والتفاؤل الكبيرين بأن مستقبلنا زاهرا بخلاف ماضينا وحاضرنا الأسود الدموي ينتظر شعوب منطقتنا التواقّة الى الديمقراطية والحريّة والمساواة والانفتاح على العالم ومنجزاته، بعد مئات السنين من القتل والظلم، وكبت الحريات، وتكميم الأفواه.. والإنغلاق في بوتقة نصوص التخلف والهمجية والعنف.. والحض على الكراهية وإشاعة التمييز بكافة أنواعه بين أبناء الشعب الواحد.. على قاعدة تلك النصوص التي لا تعترف بشريكٍ ولا تقرُّ بأخر.. ولا تعرفُ من السماحة والمودة والمحبة والتآخي والسلام إلا أسمائها.. وفي جزء بسيط منها.. أتصور دائما بأنه قد ورد في لحظة ضعف ووهن.. وليس عن قناعة وإيمان.. وهو ما قد حصل فعلا.

أيها السيدات والسادة

ان أغلب المشاكل التي تعانيها شعوب منطقتنا وباقي شعوب العالم المُسمى زورا.. (العالم الإسلامي).. وذلك في تجاوز علني وفاضح لملايين البشر معتقي الأديان الأخرى.. وبينهم ملايين المسيحيين والدروز والصابئة المندائيين والشبك والأيزيديين والبهاثيين.. وغيرهم الكثير ممن لا يدينون بدين الإسلام "السني".. ولا أريد أن أتحدث عن اليهود الذين نجح مغاوير الإسلام وفرسانه من استئصال وجودهم.. لا أذيع سرا أو أضيف جديدا اذا قلت بأن كل مشاكلنا الكبيرة منها والصغيرة يقف ورائها نصوص استئصالية.. وأفكار إقصائية.. وادعاءات استعلائية، ونزعات أحادية.. لا ترى الحق إلا لها وبين أيديها وفي نصوصها.. وغيرها إما كافر أو مشرك أو مرتد أو مارق أو زنديق.

إن لب مشاكل المنطقة وهي المشكلة الفلسطينية.. ما كان لها أن تستمر الى يومنا هذا، لولا وجود نصوص تشجع على استمرار العداة للأخر تحت وفي ظل سيطرة تلك النصوص على حياتنا بكافة جوانبها.. وصولا الى حشو دساتيرنا بمواد تستند الى تلك النصوص ولا تسمح بأي

تشريع لا يتوافق معها.. هذه النصوص التي تؤكد بأنه لا مجال للسلام والمحبة مع هذا الآخر.. وفي حالتنا الفلسطينية فإن الآخر يهوديٌّ من أحفاد القردة والخنازير.

إن ما يحصل اليوم في الأراضي الفلسطينية ليس جهادا ولا قتالا من أجل حقوق مسلوقة، وإنما هو حفل كبير من الفوضى الدموية.. ضحاياها أناسٌ صُودرت عقولهم ليقدموا أرواحهم رخيصة في سبيل العدم.. ولمجرد قتل النفس وقتل الآخر فقط بدون أية نتائج.. إن ما توافق حماس وتسعى له اليوم كان قد عُرض على الرئيس الراحل ياسر عرفات في نهاية العام ١٩٩٩ ورفضه في حينها.. وهذا يعني أن أربعة آلاف قتيل وخمسين ألف جريح ومعاق وعشرات آلاف المعتقلين وآلاف البيوت المهتمة وجدارا عازلا، لم يكن من نتيجة كل هذا إلا العودة إلى أقل مما كان معروضا على الفلسطينيين عام ١٩٩٩.. ولا أريد أن أعود هنا إلى ما كان متاحا للحصول عليه في كامب ديفيد قبل حوالي سبع وعشرين عاماً من خلال الاتفاقية التي وقعها الرئيس المصري الراحل أنور السادات.. وكذلك لن أعود إلى دعوة الرئيس بورقيبة في الخمسينيات من القرن الماضي حين دعا العرب والفلسطينيين إلى القبول بقرار التقسيم الذي رفضه العرب آنذاك.

لماذا يحدث كل هذا؟!.. وهل هو سعيٌّ إلى الموت في سبيل الموت فقط؟!.. أم هو انعكاس عملي لنصوص لا تسمح ولن تسمح بنهاية هذا الصراع حتى قيام القيامة الإسلامية، وحتى ينادي حجرٌ أو شجرة المسلم ليخبره أن يهودياً يختفي وراءه أو ورائها فليأتني ليقتله.

وبالنسبة لما حصل تاريخياً في مصر.. وما زال يحصل الآن من جرائم قتل مُروعة بحق الأقباط.. واختطاف فتياتهم وإجبارهن على التأسلم.. والاعتداء على دور عبادتهم.. والهجوم المستمر عبر وسائل الإعلام كافة على معتقداتهم.. والتمييز العنصري بحقهم في مجال الوظائف والمناصب الحكومية والخاصة.. كل هذا لم يكن ليكون لولا تلك النصوص التي تنهم المسيحيين عامة بالظلال.. ونصوص أخرى تحرّم إلى أقصى درجة ولاية غير المسلم على المسلم حتى لو كان هذا المسلم لا يملك من المعرفة درهماً.. في حين أن الآخر المسيحي يملك قناطرًا وليس قنطاراً واحداً.. وهذه حقيقة ثابتة يؤكدها اليوم الفارق الشاسع والخطير بين ما يملك الغرب "الكافر" من علوم ومعرفة وما يملكه عالمنا الإسلامي من تخلف وجهل.. ولو حصرنا هذا في المجال المصري فإن حجم الفارق في المعرفة والعلم وإعمال العقل والنشاط الذهني والحيوية من خلال مشاركة الأقباط بما لا يقل عن خمس وثلاثون بالمئة من الحركة الاقتصادية في مصر.. في حين أن نسبتهم العددية ربّما لا تتجاوز خمسة عشر بالمئة من مجموع السكان.

إن مشاكل الأقباط وعموم المختلفين دينياً، قد بدأت بالفعل في مرحلة الإسلام المدنيّ القوي المتجبر بعد سنوات من الضعف عاشتها الدعوة الإسلامية في مكة.. إن الكلام عن بداية مشكلة الأقباط مع الانقلاب العسكري في مصر عام ١٩٥٢ يُراد منه تقديم شهادة براءة لكل الأفعال الإجرامية التي ارتكبت عبر التاريخ بحق الأقباط وغيرهم منذ فجر الإسلام.. والتي لن تتوقف حتى مغيبه.. إذا لم يكن هناك وقفة حازمة وجدية وجريئة أمام النصوص التي مُرست كل تلك الجرائم والأعمال الإضطهادية تحت رايتها.. وهو ما جرى فعلاً ليس لأقباط مصر فحسب، وإنما لمسيحيي فلسطين وغيرهم من أتباع الأديان والمذاهب الأخرى.. (عندما سألت مُراسلة البي بي سي نزار ريّان أحد قادة حركة حماس عن وضع المسيحيين الفلسطينيين في حال

وصول حركة حماس الى الحكم، كان منه أن استغرب من المراسلة وطرح مثل هذا السؤال سائلا إياها ألم تسمعي بالعهد العمرية؟.. وأردف قائلاً: إن العهد العمرية هي التي تحكم العلاقة بيننا وبين "إخواننا" المسيحيين!.. يجدر بنا أن نلاحظ هنا أيضاً، أن هناك تمييزاً على المستوى الشعبي ضد غير المسلم وعدم الشعور بمعاناته وآلامه.. إن هُدَى الفلسطينيين التي قتلت عائلتها على شاطئ غزة قبل أسابيع.. مع التذكير بأن تقارير كثيرة أكدت أن أسباب مقتل عائلتها هي عبوة ناسفة من صنع حماس وليس قصف إسرائيلي كما تم الترويج له.. هذه الفتاة هُدَى.. كم شخص في العالم الإسلامي تبرع أن يكفلها؟!.. في حين أن ضحايا المسيحيين في مصر والذين قتلوا بيد مسلمين لم يجد أبناؤهم من يكفلهم ولا من يهتم بهم وبما حدث لهم.. وكأنه لم يكن هناك شيء..

إن دولة الديكتاتورية العربية الأولى بقيادة معاوية قد نهلت كل ما يؤسس لها ويدعم ركائزها من النصوص الدينية، وفتاوي رجال الدين.. وقد كانت تلك الدولة باكرة لعهد طويل من الديكتاتوريات امتد منذ ذلك التاريخ وحتى أيامنا هذه.. إن حسني مبارك والقذافي وبشار الأسد وصادق حسين وغيرهم هم أبناء شرعيون لمعاوية ويزيد والعباس وأبو جعفر وهارون الرشيد.. وهم ليسوا أبناء خمسين عاماً خلت كما يشاع.. وإن الفترة المسماة بالعصر الذهبي للحرية والليبرالية والمساواة من منتصف القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين لم تكن لنحل بها لولا وجود "مستعمر غربي".. ما أن غادرَ حتى عادت منطقتنا إلى سابق عهدها من الحكومات الديكتاتورية. وما نعيشه هذه الأيام من بوادر حركة تغيير وإصلاح على مستوى المنطقة عبر فتح المجال لمزيد من الحريات لم يكن ليكون لولا الضغط الأمريكي.. إن هذه الحريات يتسع مجالها كلما كان ذلك الضغط شديداً، وتضييق حتى تختفي وصولاً إلى انعدامها إذا ما اخنقى ذلك الضغط.

إن الإستبداد السياسي الذي يعانيه اليوم المواطن المصري المسيحي والمسلم على السواء وكذلك بقية أبناء منطقتنا لم يكن ليستمر لولا وجود واستمرار التغطية الدينية عبر آلاف النصوص والفتاوي.. والتي وصلت في غيها ودجلها حدّاً تأليه حكامنا.. وكذلك استمرار التدفق للمال الديني الوهابي.. ولا سبيل للتخلص من هذا الاستبداد إلا بعد رفع الغطاء الديني وفضحه وتعريته كخطوة أولى وأراها قد أنجزت تقريباً.. يُصار بعدها إلى كنس هذه الأنظمة والخلص منها ومن دساتيرها العنصرية.. ولا مجال للتردد اطلاقاً في طلب العون والمساعدة من شعوب العالم الحر وحكوماته ومؤسساته.. في سبيل الخلاص من هذه الأنظمة المجرمة والفاصلة والمهترئة. ولا مجال هنا أيضاً للتوقف كثيراً أمام تهم أصبح لا معنى لها من قبيل الخيانة والعمالة والاستقواء بالأجنبي.. في ظل استعصاء انجاز التغيير من الداخل.. إن دولنا قد تحولت الى مزارع وعزب خاصة لحسني وأولاده.. وبشار وإخوانه وأبناء عمه وخاله.. وغيرهم من حكام العرب.. ومن يقفي لهم من دجالى الدين.. هذه العزب والمزارع الخاصة أو الأوطان مجازاً، تصبح خيانتها منتهى الوطنية.. والسكوت على أوضاعها الراهنة بحجة الحفاظ على السيادة الوطنية منتهى الخيانة.

مع التعااضد والتعاون في سبيل الخلاص من هذه الحكومات ومن يقف وراءها ويدعمها من رجال الدين ونصوصهم البدائية تتوقف معاناة الجميع مسلمين ومسيحيين وآخرين.. لينطلق هؤلاء جميعاً لبناء أوطانهم التي يسودها حكم القانون ويُسيرها دستورٌ يتفق الجميع على صياغته وإقراره.. دستورٌ يحترم الإنسان والإنسان فقط.. بوصفه مقدساً وحيداً لا يستطيع أحد المساس به وبحقوقه.. بعيداً عن التصنيفات العنصرية المستندة الى دين الإنسان وعرقه ولونه ونوعه التي

تمتلئ بها دساتيرنا اليوم.. إنها مهمة شاقة وطويلة لا شك في هذا.. ولكن مع توافر الإرادة والإصرار على انجاز التغيير فلا بد من النجاح.. فالتاريخ قدم لنا دروساً كثيرة ومُعبرة.. بخصوص الديكتاتوريات وحتمية نهايتها.. وهذا المؤتمر يأتي في سياق العمل من أجل إنجاز التغيير والإطاحة بالديكتاتوريات القائمة.. وهو ما نتمنى له النجاح وما نسعى إليه.

سيرُوا أيها الأقباط ونحن معكم في معركتكم.. ففي خلاصكم خلاصٌ لنا نحنُ المسلمين من خلال استعادة عقول الكثيرين منا.. التي صُوِّدِرَتْ منذ زمن طويل وأنَّ أوَّانُ استِعادَتِهَا.. وشكراً.

حسين ديبان
نيوجيرسي/الولايات المتحدة

Hussein Diban
New Jersey / USA

hdiban69@yahoo.com